مقياس منهجية البحث الأدبي: السنة الثالثة أدب عربي

د/ سعاد حميدة

الأفواج(1+2+3)

المحاضرة3: تاريخ البحث الأدبي العربي(تطور التأليف الأدبي عند العرب)

يمكن إرجاع المادة التي يقوم عليها التأليف الأدبي عند العرب إلى ثلاثة عناصر رئيسية هي؛ الشعر والنثر والأخبار. وقد كانت هذه العناصر الثلاثة تنقل في العصر الجاهلي عن طريق الرواية التي شارك فيها خلال ذلك العصر طوائف متعددة من أفراد و جماعات و قبائل، فهناك راو واحد للشاعر إلى جانب رواة قبليين يروون شعر شعراء القبيلة وما يتصل به من مآثر وأخبار .

وعلى الرغم من الأدلة الكثيرة التي تشير إلى تدوين المرويات منذ العصر الجاهلي ،لكننا لا نستطيع عد هذه المرويات المدونة تأليفا أدبيا، بمعنى البحث سواء أكانت كتبا قبلية أم قصائد للشعراء، ويمكننا عد هذه المدونات ضربا من المصادر الأولية للتأليف.

وقد ظلت تلك المدونات واستمرت على الحال نفسه طوال القرن الأول الهجري ،حتى إذ ما بدأ القرن الثاني للهجري رأينا حركة علمية منظمة، يشارك فيها علماء اللغة والأخبار، تهدف إلى تتبع المرويات القديمة وجمعها، وإفرادها بمؤلفات منذ أواسط القرن الثاني وقد استمرت هذه الحركة قوية نشطة حتى كثرت المؤلفات الأدبية وتنوعت أصنافها في القرن الثالث وما بعده.

وقد مثلت المؤلفات التي أنتجتها هذه الحركة شكلا أوليا من أشكال التأليف الأدبي ،فمن هذه المؤلفات ما جاء على شكل مجموعات شعرية، تتمثل في الدواوين والاختيارات الشعرية وكان بعضها يجمع بين الشعر والأخبار بلا تنسيق، ثم بدا الاتجاه إلى الاختيارات الشعرية منذ أواسط القرن الثاني الهجري، إذ أن أقدم هذه الاختيارات هي المعلقات التي قام بجمعها حماد الراوية (ت156) والمفضليات التي جمعها المفضل الضبي (ت168)، ثم تلاهما الأصمعي (ت216)في القرن نفسه فاختار مجموعة أطلق عليها الأصمعيات، وكانت هذه الاختيارات الأولى أساس فكرة الاختيارات الشعرية التي تلتها وعرف بعضا باسم الحماسة .

ثم جاء بعد هذه المرحلة مرحلة أخرى، هي جمع الدواوين الشعرية حيث قام عدد من علماء القرن الثالث الهجري بجمع دواوين الشعراء، بل منهم من جمع دواوين قبائل كاملة، وقد تطورت مرحلة التأليف شيئا فشيئا، إذ قام بعض العلماء بتأليف بعض المصنفات ومنهم ابن الكلبي وابن هشام وأبو عبيدة ومن عاصرهم، ففي هذه المؤلفات نجد مادة وافرة من الشعر القديم ممتزجة بمادة وافرة من الأخبار .

ثم أخذت المادة اللغوية تستقل في الحقبة نفسها، إذ قصد مؤلفوها إلى جمع اللغات النادرة حينا والمتشابهة أو المتضادة في المعني حينا أخر، وهذه المؤلفات تنسب في تأليفها إلى عالم مشهور إلا أنها في الأصل مجموعة من المدونات المروية عن العلماء كما في النوادر والنقائض.

وإذا ما تقدمنا قليلا نلاحظ أن تطور مرحلة التأليف تطورا ملحوظا، حيث أخذت المؤلفات الأدبية تستقل ذلك في مصنفات منها كتاب ((طبقات فحول الشعراء)) لابن سلام الجمحي (ت231) فالكتاب يدل من محتواه على دقة التقسيم وتدوين الآراء النقدية التي بثها فيه .

وأما إذا تخطينا كثيرا من المدونات التي تشبه لحد ما كتاب طبقات فحول الشعراء، حتى نصل عصر الجاحظ (ت255ه) فسنجد محاولات أخرى للتأليف المنهجي تظهر في توزيع مواد الكتاب بعناوين عديدة يحمل بعضها اسم (باب) مما يشر إلى ابتداء التفكير، بتقسيم الكتاب داخليا إلى أبواب كما يظهر هذا الالتزام في كتابي ((البيان والتبيين))و((الحيوان))الذي سار فيهما الجاحظ على منهج علمي أكثر تطورا عن الكتب الأنفة الذكر .

ثم ظهرت كتب كثيرة تنحى منحا منهجيا من حيث التقسيم ومن حيث معالجة النصوص ككتاب ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (276) وكتاب ((البديع في نقد الشعر)) لابن المعتز (ت296) وغيرهما .

وهكذا استمرت حركة التأليف حتى أصبحت أكثر دقة من حيث اختيار العناوين، ومن حيث التقسيم الداخلي وعرض المادة ككتاب ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر(ت337) والموازنة للآمدي (370) و((كتاب الصناعتين))لأبي هلال العسكري (ت395) وغيرها .

ثم ظهرت اتجاهات جديد لم نر مثيلها، عالج فيها مؤلفوها الناحية العلمية المهمة من مسائل الكتابة والنقل عن المصادر ككتاب ((التنبيه على حدوث التصحيف))لحمزة الأصفهاني (ت360) وكتاب ((التنبيهات على أغاليط الرواة)) لعلي بن حمزة البصري (ت375) وكتاب ((شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف)) لأبي أحمد العسكري (ت382ه).

خلاصة القول إن حركة التأليف الأدبي عند العرب كانت عملية منظمة، بدأت بسيطة ثم تطورت ووصلت إلى درجة النضج ثم تحولت في الحقب المتأخر إلى حركة علمية متكاملة لها أسسها ومبادؤها العلمية المرسومة، التي يمكن أن تقابل ما وضعه الدارسون المحدثون من كتب في منهج البحث.